

مرجعية الخطاب الديني عند الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في مواجهة الخطاب الكولونيالي



✍ الدكتور: عبد الفتاح بوعزة

✍ الدكتور: ناصر معماش

جامعة محمد البشير الإبراهيمي - برج بوعريش



تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الإرسال
2026/01/31	2026/01/26	2025/12/06



المخلص:
كان ولا يزال الحديث عن مقومات الصراع النصي- والفكري المبثوث إبان ثورة التحرير وما بعدها بين ثنايا الرسائل والخطب التي تغنت بذكرها الشفاه وصدحت بجزالة ومثانة أسلوبها الحناجر؛ إضافة إلى تصدر أعلامها للصفحات الأولى ورواج أفكارهم رواجا كبيرا؛ بين المثقف عامة والشعب خاصة؛ بسبب دعواها الإصلاحية والتوعوية؛ التي أثنتها المنابر والجرائد والمجلات؛ موازاة والصراع المسلح مع الآخر تقويضا ومجابهة؛ دافعة بذلك الدارسين إلى تتبّع الملامح والإيماءات الأولى التي أسهمت في ترسيخ مفهوم الثقافة الوطنية بما للكلمة من حمولات معنوية تنمى معظمها مع طبيعة تفكير المنافرة والقطيعة المعرفية والإيديولوجية بين المثقف الجزائري والمعمّر؛ وعيا وإدراكا منه لحقيقة الخطاب الكولونيالي التغريبي الذي حاول من خلاله حاملو هذا اللّواء في أكثر من محطة الإخلال بمفهوم الهوية والثقافة من جوانب عدّة؛ تنصّب معظمها وباختلاف مشاربها وألوانها الفكرية والسياسية، والثقافية، والدينية (تجنيسا، وفرنسة،

وتهويدا) في وعاء الثقافة لأجل تفعيل معاني الانحلال الحضاري واللغوي والديني.

هذا الأخير بدوره شكّل بؤرة التوتر والصراع الثنائي بين المثقفين؛ حيث دفع بالمثقفين الجزائريين على شاكلة أعلام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين؛ إلى تكريس أقدانهم خدمة لما للثقافة الوطنية بما تحمله هذه الأخيرة من مساع تصبو إلى إماطة اللثام عن الجوهر الحقيقي لمفهوم الثوابت الوطنية من لغة وقومية ومعتقد؛ وعلى رأسهم الشيخ - محمد البشير الإبراهيمي - الأمر الذي يدفعنا إلى طرح الإشكال التالي:

ما هي الأسس الدينية التي استند إليها الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في معالجته للخطاب الاستعماري؟

- الكلمات المفتاحية:

الخطاب؛ الديني؛ المرجع؛ مواجهة؛ الكولنيالي.

- Summary:

The talk about the foundations of the textual and intellectual conflict that spread during the Algerian Liberation Revolution and beyond was and still is present in the letters and speeches that were sung by lips and voiced by throats, eloquently and strongly. The great scholars relevant to that era were appearing on the front pages, and their ideas becoming very popular among intellectuals in general and the people in particular, thanks to their reformist and awareness-raising claims, reinforced by platforms, newspapers and magazines ; in addition, parallelly, to the armed conflict aiming at defeating and destroying the enemy. This led scholars to trace the first features and gestures that contributed to establishing the concept of national culture, with all the connotations of the term, most of which are consistent with the nature of the cognitive and ideological discord and rupture between Algerian intellectuals and the colonizers ; the formers being aware of the reality of the colonialist discourse of westernization, through which those who carried this banner attempted, on more than one opportunity, to undermine the concept of identity and culture in several ways; most of them, regardless of their intellectual, political, cultural, and religious

affiliations and colors (naturalization, frenchification, and judaization), focus on culture in order to activate the meanings of cultural, linguistic and religious decadence. This prompted Algerian intellectuals, such as the leaders of the Association of Algerian Muslim Scholars, to devote their pens to serving national culture and its efforts to unveil the true essence of the concept of national constants in terms of language, nationality, and belief. At the forefront of these intellectuals was Sheikh Muhammad Al-Bashir Al-Ibrahimi. This leads us to asking the following question:

What were the religious foundations of Sheikh Muhammad Al-Bashir Al-Ibrahimi in addressing the colonial discourse.

- **Keywords:**

Al-Ibrahimi; Religious Discourse Foundations; Colonial.

- مقدمة

كان ولا يزال الحديث عن مقومات الصراع النصي والفكري المبعوث إبان ثورة التحرير وما بعدها بين ثنايا الرسائل والخطب التي تغنت بذكرها الشفاه وصدحت بجزالة ومثانة أسلوبها الحناجر؛ إضافة إلى تصدر أعلامها للصفحات الأولى ورواج أفكارهم رواجا كبيرا؛ بين المثقف عامة والشعب خاصة؛ بسبب دعواها الإصلاحية والتوعوية؛ التي أثنتها المنابر والجرائد والمجلات؛ موازاة والصراع المسلح مع الآخر تقويضاً ومجابهة؛ دافعة بذلك الدارسين إلى تتبع الملامح والإيماءات الأولى التي أسهمت في ترسيخ مفهوم الثقافة الوطنية بما للكلمة من حمولات معنوية تتماهى معظمها مع طبيعة تفكير المنافرة والقطيعة المعرفية والإيديولوجية بين المثقف الجزائري والمعمّر؛ وعيا وإدراكا منه لحقيقة الخطاب الكولونيالي التغريبي الذي حاول من خلاله حاملو هذا اللواء في أكثر من محطة الإخلال بمفهوم الهوية والثقافة من جوانب عدة؛ تنصبّ معظمها وباختلاف مشاربها

وألوانها الفكرية والسياسية، والثقافية، والدينية (تجنيسا، وفرنسة، وتهويدا) في وعاء الثقافة لأجل تفعيل معاني الانحلال الحضاري واللغوي والديني.

هذا الأخير بدوره شكّل بؤرة التوتر والصراع الثنائي بين المثقفين؛ حيث دفع بالمثقفين الجزائريين على شاكلة أعلام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين؛ إلى تكريس أقلامهم خدمة لما للثقافة الوطنية بما تحمله هذه الأخيرة من مساع تصبو إلى إمطة اللثام عن الجوهر الحقيقي لمفهوم الثوابت الوطنية من لغة وقومية ومعتقد؛ وعلى رأسهم الشيخ - محمد البشير الإبراهيمي- الأمر الذي يدفعنا إلى طرح الإشكال التالي:

ما هي أهم المرتكزات الدينية التي اتكأ عليها الشيخ -محمد البشير الإبراهيمي- في مواجهة الخطاب الكولونيالي؟

- ثنائية الإصلاح والإسلام

المتتبع لأبرز مسارات، ومحطات جمعية "العلماء المسلمين الجزائريين" يجد أنّ أكثر مساعيها يكمن في ترسيخ معاني الإصلاح والتوعية المنبثقة بدورها من الدين الإسلامي؛ بعد أن استتبّ الجهل، وطال ليله، وطأطأ الفكر رأسه، وتضبّبت المعالم والسبل في أعين الشعب الجزائري ردحا غير قليل من الزمن؛ ما حثّم على مؤسسي "جمعية العلماء" وعلى رأسهم الشيخ -محمد البشير الإبراهيمي- العمل على تحرير العقول من القيود والمغالطات؛ بعد ذبوع وانتشار كم هائل من المهارات التي لا تمت للإسلام بصلة؛ من إقامة للأضرحة والتبرّك بالأولياء الصالحين، واتخاذ قبورهم محجا يأوون إليه أنا اقتضت إليه الحاجة من انحباس للمطر؛ وقلة في الرزق.

حيث وصل الأمر إلى درجة طلب الذرية منهم وغيرها من البدع والخرافات، التي تجعل المرء في أكثر من موضع يدخل في باب الشرك،

الأمر الذي استلزم التدخل، والتوجيه، والإرشاد، والوقوف سداً منيعاً تجاه المعمر وخطابه الساعي إلى التغريب، والتهويد جراء إقامته للكنائس، والملاهي، ومن ذلك تفضّنه لمظاهر دخيلة على المجتمع، كالطريقة الصوفية وشطحاتها وغيرها من الأفكار الهدامة التي تصبوا إلى دحض القيم الأخلاقية والدينية للمجتمع الجزائري.

وهو ما ألزمه الردّ على أقوالهم بالحجة والدليل؛" ويقولون عنّا إنّنا وهابيون، كلمة كثر ترادها في هذه الأيام الأخيرة التي أنست ما قبلها من كلمات: عبداوين، وإباضيين، وخوارج. فنحن بحمد الله ثابتون في مكان واحد وهو مستقرّ الحق، ولكن القوم يصبغونها في كل يوم بصبغة ويسموننها في كل لحظة بسمة، وهم يتخذون من هذه الأسماء المختلفة أدوات لتنفير العامة منا وإبعادها عنّا وأسلحة يقاتلوننا بها وكلما كلّت أداة جاءوا بأداة، ومن طبيعة هذه الأسلحة الكلال وعدم الغناء، وقد كان آخر طراز من هذه الأسلحة المفولة التي عرضوها في هذه الأيام كلمة "وهايي" ولعلّهم حشدوا لها ما لم يحشد غيرها وحفلوا بهام الم يحفلوا بسواها ولعلّهم كافأوا مبتدعها بلقب (مبدع كبير)".

ولأنّ المثقّف ابن أمتّه، فقد ثقّف الإبراهيميّ و هو العارف بكنه تلك الممارسات ذلك الانحراف الخطير عن مسار الدّين الإسلاميّ الذي رام من خلاله خطاب المعمر -الكولونيالي- ضعضة المعالم الأساسية للدّين؛ وجعله من أسباب التخلف عن مسار الأمم الرائدة اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا واجتماعيا، ناصّا على ذلك بقوله: "إنّ الإسلام في جوهره لإصلاح عامّ من الله به على العالم الإنساني، بعد أن طغت عليه غمرة حيوانيّة عارمة، اجتاحت ما فيه من فطرة صالحة ركبها ربّ العالمين، و ما فيه من أخلاق قيمة وشرائع عادلة، قرّرها الهداة من الأنبياء، والمرسلين، والحكماء، والمصلحين، وصحبتها غمرة وثنية وقفت في طريق الفكر فعاقتة عن التقدّم، وابتلتها بما يشبه الشلل،

وقطعت الصلة بين الإنسان وخالقه، وعبدت بعضه لبعض، ثم عبدته للأصنام، وعبدته للأوهام، ولكن الله تداركه برحمته، فجاء بالإسلام بعد أن مدت هذه الغمرات مدّها وبلغت حدّها واستشرف لحال خير من حاله ونور يجلو ظلمته، وكان ذلك النور هو الإسلام".

مؤمنا بفكرة أن لا صوت يعلو فوق صوت الدستور والمنهاج الربّاني (القرآن الكريم) الذي عني بدقائق الأمور ومصرفاتها خلقا وتصويرا وتديرا؛ وأن حملات التغريب والعلمانية السبب الرئيس في انحطاط الأمم، فهي بمثابة السّوس الذي يحاول نخر عظام الأمة؛ فكان خطاب الإبراهيمي دحضا وتقويضا للحملات الكولونيالية الشّهواء التي جعلت الانسلاخ من العقيدة سببا من أسباب السعادة والرفق والازدهار وهو ما جعله يتساءل قائلا: "كيف يشقى المسلمون وعندهم القرآن الذي أسعد سلفهم؟ أم كيف يتفرقون ويضلّون وعندهم الكتاب الذي جمع أولهم على التقوى؟ فلو أنهم اتبعوا القرآن، وأقاموا القرآن لما سخر منهم الزّمان، وأنزلهم منزلة الضّعة والهوان".

فقد تناصّ في أكثر من موضع مع الآيات القرآنية الكريمة؛ وهو بدوره ما يحيل إلى تشبّع فكره بمعانيها السّامية التي لا حدّ لحدها ولا ضابط لمصرفها أو لتصرفها توجيهها وإصلاحا وتوعية، وإرشاد.

هذا ونجد الإبراهيمي يميء من خلال دعوته النضالية والتّوعوية الإصلاحية إلى رمز من الرموز الذين أثّروا لمشهد الثقافة الوطنية، الشّيخ الإمام الأستاذ -محمد عبده-؛ واتّخاذة أداة من أدوات رفع الهمم وتنبيه الغافلين وإيقاض النائمين؛ حاملا على عاتقه فكرة مواجهة الخطاب الكولونيالي؛ حيث يقرّ الإبراهيمي بأنه: "لا نزاع في أن أوّل صيحة ارتفعت في العالم الإسلاميّ بلزوم الإصلاح الديني والعلمي في الجيل السّابق لجيلنا هي صيحة إمام المصلحين الأستاذ الإمام الشّيخ محمد عبده -رضي الله عنه-، وأنّه أندى الأئمّة المصلحين صوتا،

وأبعدهم صيتا في عالم الإصلاح، فقد جاهر بالحقيقة المرة، وجهر بدعوة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إلى الرجوع إلى الدين الصحيح، والتماس هديه من كتاب الله ومن سنة نبيه، وإلى تمزيق الحجب التي حجبت عنا نورهما وحالت بيننا وبين هديهما، مبينا بصوت يسمع الصم، وبلاغة تستنزل العصم".

كإشارة إلى فهمه الصحيح لما جاء بين دفتي الكتاب والسنة، وعلو شأنه وذيوخ اسمه بين الخلائق نتيجة بلاغة لسانه وحلاوة بيانه وأسلوبه المعجب وكلامه المضمخ بالحجة والدليل.

كما التفت إلى أنّ علّة العلل في سقوط المسلمين وتأخرهم وراء الأمم وانحطاطهم عن تلك المكانة التي كانت لهم في سالف الزمن هي بعدهم عن ذلك الهدى الروحاني الأعلى، وأنّه لا يرجى لهم فلاح في الدّنيا ولا في الآخرة، ولا صلاح حال يستتبع صلاح المآل، ولا عزّة جانب ترد عنهم عداية الغاصبين من الأجانب، إلّا إذا راجعوا بصائرهم، واسترجعوا ذلك الهدى الذي لم يغصبه منهم غاصب، وإنّما هجروه عن طوع أشبه بالكره، واختيار أشبه بالاضطرار، فباءوا بالمهانة والصّغار والخسار...".

- النقد الأدبي الإسلامي عند الإبراهيمي

أدرك محمد البشير الإبراهيمي أن إحياء التراث الأدبي هو إحياء للأصالة؛ وتمجيد للثقافة العربية، وتخليد لمآثر الأمة؛ وحديثه عن إحياء التراث عن الشّعور العربي القديم وما يتبطّن داخله من معان سامية ترفع شأن الدّعوة الإسلامية والسّيرة النبويّة، حيث قام بعرض نماذج نصيّة تنصبّ مجملها في فنّ المعارضات؛ إضافة إلى حديثه عن شعراء ينتمون إلى مدرسة الإحياء كرسالة منه على ضرورة إحياء التراث وتفعيل الأقلام خدمة له من جهة وتمجيد الأشعار التي تدعوا إلى التّغّي بالوطن والثّورة والعروبة والإسلام من جهة أخرى.

ومن أمثلة ذلك نراه يدّخر جهدا في الحديث على الشاعر المصري "أحمد شوقي" وماله من منزلة شعرية بين شعراء العرب؛ فقد تمّ وسمه بشاعر الأمراء وأمير الشعراء؛ عام "1927م". إضافة إلى اعتباره أحد أبرز النماذج الشعرية لدى مدرسة الإحياء؛ "فحين نقرأ قصيدته الشهيرة "ريم على القاع" التي عارض من خلالها محمّد "البويصري" فنّا وجماليا في مدح الرسول -صلى الله عليه وسلم- نعي أنّ" لاهتمام الإبراهيمي به له مبرراته الفنية والموضوعية، وقد أشار إليها، كوفرة (الإسلامية) في شعر شوقي وبراعته في التعبير الفني الجمالي والتصوير الشعري. ومعنى ذلك لأصالة شعر شوقي وسيرورته ضمن الأساليب الفنية المتعارف عليها في التراث الشعري العربي، ولصدوره عن رؤية إسلامية ملتزمة لا تخطئها القراءة المتأنية في سائر شعره وشعره المجدّد".

والتّجديد هاهنا هو التجديد في القوالب الشعرية، والفنية التي تخدم جوهر القضية "الإسلام"؛ ونخلص إلى أنّ الإبراهيمي كان يتبنى مفهوما للأدب هو المفهوم الذي يتعارف عليه النقاد اليوم بالأدب الإسلامي، أي الأدب بوصفه التعبير الفني الهادف عن الإنسان والحياة والكون وفق الكتاب والسنة، أو بعبارة أوضح تعبير ناشئ عن امتلاء النفس وبالمشاعر الإسلامية والواقع أنّ للإسلام تصوّر خاصّ ومن الطبيعي أن يتّخذ التعبير عن الحياة لدى الأديب المسلم لونا خاصّا يفترق بحكم ذلك على أن يكون نسخا واتباعا وتقليدا لمنماذج آداب الأمم الأخرى أو صورة طبق الأصل لها.

ومن هذا الوعي النقدي يخصّ الإبراهيمي شعر أحمد شوقي بالتقدير الكبير والإعجاب العظيم الذي قد يقترب من الغلو في الحكم أحيانا فيقول في مقالته الدين في شعر أحمد شوقي "إنّ لشوقي عليّ لحقا أوجبته على نفسي حين غاليت بقيمته في شعراء العربية غابرههم وحاضرهم" غير أن إعجاب الإبراهيمي الشديد بشعر شوقي لم يكن

حائلا أمام نقده ومعارضته؛ فالالتزام التقدي يفرض عليه غربة النص الشعري، وقراءته على مصراعين اثنين.

فإذا كان المصراع الأول يتحدث فيه منبها عن براعة أسلوبه ودقة وصفه وصفاء قلبه مقرا أن "من دلائل إيمانه القوي بالله ورسوله ومحبته لهما محبة ملكت شعوره، تلك المدائح النبوية التي أرى أنه تفوق فيها على السابقين والأولين وبدّ فيها السوابق القرّح من المجدين في هذا الباب الذي لم يجد فيه قبله إلا اثنان أو ثلاثة في تاريخ الملة الإسلامية إنّ في مدائح شوقي أنواعا من الحكم وأصنافا من العلم وأمثالا مضروبة ونصائح ومذكرات لا توجد في مدائح غير شوقي"، فإنه في المصراع الثاني لا يغضّ الطرف بتاتا حين قام بمدح فرنسا وراح يلبسها أبهى الحلل عجا وافتنانا بها، وهو ما سبب له النفور من قبل أدباء الجزائر ومثقفها فافتنانه: "بحضارتها المزيفة، وتخطيه الأصول التاريخية التي لا تعترف لفرنسا ببعض ما نوه به شوقي من فضائلها من خلال قوله:

دم الثّوار تعرفه فرنسا *** وتعلم أنّه نور وحقّ

جرى في أرضها، فيه حياة *** كمنهل السماء وفيه رزق

وحزرت الشعوب على قناها *** فكيف على قناها تسترق

سامحك الله يا شوقي، أيّ شعب تحرّر على قنا فرنسا، فإن كان بعض ذلك فهو من باب الربا الفاحش؛ تأخذ فيه فرنسا أكثر ممّا تعطي وليس خالصا لوجه الحرية والتحرير" وإنّما صورة من صور السبيل والغضب والاستدمار والوحش.

- الخاتمة

نخلص من خلال هذه الورقة البحثية إلى أنّ محمد البشير الإبراهيمي استطاع أن يقف إلى حدّ بعيد سدا منيعا تجاه الخطاب الكولونيالي من خلال:

- عبد الفتاح بوعزة/ناصر معماش - مرجعية الخطاب الديني عند الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

- مناهضة الاختلالات اللاعقائدية والكشف عن مساعيها التغريبية التي لا تمت للإسلام بصلة.
- الوصول إلى حقيقة مفادها أن العلمانية والشطحات الصوفية مفسدة للدين والعقل.
- اتخاذ محمد عبده كرمز من رموز الدين والوطنية الذين ذاع صيتهم في الآفاق.
- القرآن الكريم هو الدستور الأدق والمعنى الأعمق لكل ما هو آت وما مضى وسبق.
- النقد الأدبي الإسلامي من معالم إحياء التراث وهو مدعاة للتمسك بالإرث وحماية للتاريخ من الاندثار والتزوير.
- مدرسة الإحياء من المدارس التي ساهمت في إثراء المشهد الديني والإسلامي معا.
- على الرغم من إعجاب محمد البشير الإبراهيمي بشعر شوقي وإنبهاره به إلا أن القضية الجزائرية (التاريخ، الثورة، الوطن) فوق كل اعتبار ما حتم عليه تخطئته وتعيبه ونقده.

- عبد الفتاح بوعزة/ناصر معماش - مرجعة الخطأ الديني عند الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

- قائمة المراجع

- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب.

- عبد الرحمان شيبان، مقدمة مجلة الشهاب، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 2000م، ص23 نقلا عن كتاب سجل المؤتمر المنعقد بنادي الترقى بالعاصمة (الأحد-الأربعاء)، (16-19) جمادى الثانية 1354هـ الموافق لـ (15-18) سبتمبر 1935م.

- محمد البشير الإبراهيمي سيرته بقلمه "من أنا" تحقيق رابح بن خوية، دار الوطن، 2018م، ص79.89، الإسلامي، ج1، ط1، 1997، ص123.

- رابح بن خوية، معالم في النقد الأدبي الإسلامي عند الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، البدر الساطع للطباعة والنشر، دط، مارس 2019، ص9.

- الهوامش

- 1- عبد الرحمان شيبان، مقدمة مجلة الشهاب، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 2000م، ص23 نقلا عن كتاب سجل المؤتمر المنعقد بنادي الترقى بالعاصمة (الأحد-الأربعاء)، (16-19) جمادى الثانية 1354هـ الموافق لـ (15-18) سبتمبر 1935م.
- 2- المصدر نفسه.
- 3- محمد البشير الإبراهيمي سيرته بقلمه "من أنا" تحقيق راجح بن خوية، دار الوطن، 2018م، ص79، 89.
- 4- المصدر نفسه.
- 5- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ج1، ط1، 1997م، ص123.
- 6- راجح بن خوية، معالم في النقد الأدبي الإسلامي عند الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، البدر الساطع للطباعة والنشر، دط، مارس 2019، ص9.
- 7- المرجع نفسه.
- 8- راجح بن خوية، معالم في النقد الأدبي الإسلامي عند الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ص23.
- 9- المرجع نفسه، ص29.